



يقول الله تعالى- : {مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي ُجُوْهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَأَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}. [الفتح:29].

في هذه الآية الكريمة من سورة الفتح، بعض من صفات محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، صفات عظيمة، كان لها أبلغ الأثر في عزتهم وسيادتهم وعلو رايتهما، وهي في الوقت ذاته كانت سبباً في ذل الأعداء وانكسارهم أمام هذه الثُّلَّةِ المؤمنة، رضي الله عنهم، وصلى وسلم على قائدتهم محمد بن عبد الله.

ولما كان صلاح هذه الأمة لا يأتي إلا باتباع ما كان عليه أولها، فإننا نجثو على الركب، ويوضع كل منا يديه على فخذيه بين يدي هذه الآية العظيمة: نحاول الاستلهام والاغتناء بما كان عليه صاحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أخلاق وصفات، عسانا أن نحقق أهدافنا، وننال حريتنا، ونكون الوسط بين الأمم:

أ- الشدة والغلظة على الكفار المعذبين، فهم جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة لصدِّهم وردعهم. لذلك ذلَّ أعداؤهم وخضعوا للحق، واحتكموا إليه. ولا شك أن هذا صفة مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا أهل الحق والإيمان، ولا يليق بمن لهم إلا إظهار الغضب لله والحب لله والبغض في الله.

ب- لهم فيما بينهم متحابون، مترحمون، متعاطفون، كالجسد الواحد، بل يزيد الأمر على الرحمة والتواد، ليبلغ الذل والخضوع. وما ذاك إلا لأن هذا الخلق نابع من الإيمان في قلوبهم، فكلما عظمت محبة الله -تعالى- في قلوب العباد المؤمنين عظمت محبة أولياء الله وأحبابه فيها، فيغدو القلب خافضاً لإخوانه الجناح، يذل لهم، ويتفانى في التضحية وأمامهم. ت- أما حالهم مع الله: فهم الراکعون الساجدون لله. حتى ليُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّ هَذِهِ الْهَيَّةَ هِيَئَتُمُ الدَّائِمَةَ حِينَما رَأَيْتُمُهُمْ، فَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ هِيَ الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ لَهُمْ. وَأَمَا حَالَةُ بُوَاطِنِهِمْ وَنَفْوِهِمْ فَهِيَ طَلْبُ فَضْلِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، لَا الدِّنِيَا وَلَا الْمَنَاصِبُ وَلَا الشَّهَوَاتُ، فَهُمْ: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}. فَلَا تَطْلُعْ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْكَرَامَةِ، لِذَلِكَ أَشْرَقَتْ وُجُوهُهُمْ وَاسْتَنَارتْ؛ تَبَعًا لِصَفَاءِ قُلُوبِهِمْ وَخَلُوصِ نِيَاتِهِمْ: {سِيمَاهُمْ فِي ُجُوْهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ}. ث- هكذا جاء ذكرهم في الكتب السابقة (التوراة-إنجيل)، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضوان الله

عليهم- أشبه بالزرع الذي يظهر في أول أمره ضعيفاً رقيقاً، ثم تتفرع فراخه حول بعضها البعض، فيغليظ ويتکامل حتى يقوى ويشتد، ليكون ذا جودة تناول رضا الناظرين. كذلك أصحاب رسولنا -صلى الله عليه وسلم-، بدؤوا في قلة وضعف، ثم كثروا وقووا، ففرح المحبون، واغتاظ الكارهون، وصدق الله العظيم: {وَإِذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَأَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ}.

نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَ فِينَا تَلْكَ الصَّفَاتَ وَالْأَخْلَاقَ الْجَلِيلَةَ، لَنْرَحْ إِخْوَانَنَا، وَنَشَتَّدَ عَلَى أَعْدَانَنَا، وَنَمْرُغَ الْجِيَاهَ فِي الْعِبَادَةِ لِرَبِّنَا، كَيْمَا نَسْتَحْقُ الْفَتْحَ وَالنَّصْرَ وَالْتَّمْكِينَ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةَ وَالْكَرَامَةَ فِي الْآخِرَةِ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المصادر: